الفصل العاشر

أول خطبة

أخذ كامل القاضي يلعب النرد مع أحد أصدقائه القدامى فـي غرفـة نومه، ويصغي الى المذياع في أول خطبة للرئيس المصري في سوريا.. ولم يلبث أن غُلب في اللعب لانشغال تفكيره فامتعض قليلا ثم نحى طاولة النرد وارتكز الى كرسيه المريح وقال:

-بارك الله فيه.. يريد الله به نصر العرب وتحرير فلسطين.. إنسان مخلص وبطل مغوار.

والتفت الى صورة ملازم شاب معلقة على الجـدار أمامـه وأردف مخاطبا صديقه:

- هل أستطيع أن أنسى هذه الزهرة التي هصرت يا أبا رفيق؟ كـل مرضي من القهر.. الغصة غصة واللوعة لوعة حتى تتحرر فلسطين..

ولم تلبث أن دخلت مها ومعها ابنة أخت زوجها عائدة، وقد أصبحت زهرة متفتحة في التاسعة من عمرها وكانت ترتدي ثوبا مـن الـساتان الأخضر والأبيض والأسود وعليه نجوم حمراء كما العلـم الـسوري.. وأخذت عيناها الخضراوان الواسعتان تتلألآن بفرح الطفولة وهي تحدث جدها كيف اخترقت جموع الناس الذين احتشدوا أمام قصر الضيافة الـى حيث الرئيس المصري وقدمت له باقة زهور.. وصفقت زهـوا وهـي تخبره بأنه حملها وقبلها أيضا.

وابتسم الجد ابتسامة رضى وأخذ يمسح على شـعر حفيدتـه بفخـر واعتزاز ثم التفت الى زوجة ابنه وقال:

-جاهدت اليوم.

-وأي جهاد! ألا تسمع صوتي؟ بح لما هتفت هذا النهار.. وقـدماي متورمتان لما طويت من مسافات أنا وطالباتي.

-كانت مظاهرة رائعة، أليس كذلك؟ انها جديرة بهذا البطـل الـذي يريد الله به عز العرب.

-أية مظاهرة ياعمي! لم تشاهد سوريا مثل هذا اليوم.. الناس كالنمل يخرج من أوكاره في يوم مشمس ربيعي.. مرت سيارة الرئيس فحملهـا الرجال على الأكتاف.. كنا قريبين من الشرفة.. وخطب الـرئيس.. لـم أسمع شيئا من الخطبة، ولكن صوته كان نشوة للسمع والقلـب.. وأيـة طلعة مهيبة!

- إغلي لنا قهوة يامها لي ولعمك أبي رفيق، الله يرضى عليك، فعمتـك عائشة لم تحضر بعد من زيارة صديقتها التي يطل بيتهـا علـى قـصر الضيافة.

كانت كلمات الهتاف لاتزال تدوي في أذني مها وتأخذ عليها مـسالك تفكيرها. وأشعلت عيون الفرن الثلاثة، وهيأت قهـوة ومغلـي البـابونج وسخنت ماء. ولم تلبث بعد قليل أن خلعت حذاءها ووضعت قدميها في طست من الماء الساخن والملح. ولسعها ما نتأ فيهما من تآليل ملتهبـة. فأخذت تخرجهما وتغطسهما وهي جالسة الـى طاولـة المطـبخ تقـشر الخضر لطهي وجبة العشاء لعمها بدون ملح وبقليل مـن الزبـد حـسب ارشادات الطبيب بسبب ارتفاع ضغط الدم الذي يعانيه.

ولم يلبث بعد أن ناولته الطعام أن رن جرس الباب وحضرت ابنتـه حياة وبرفقتها زوجها الدكتور عادل. فقبلت مها أخت زوجهـا وسـلمت على صهرها وودعت صديق عمها. ولما عادت الى الغرفة فاجأت عمها يطوي ورقة على عجل واضطراب فقالت ممازحة:

-أنظره يادكتور.. انه يغافلني ويرش الملح فوق طعامه..

وضحك كامل القاضي ضحكة طفل مذنب وصهره يدخل وقد تعلقت ابنته عائدة بذراعه.. وبدا على وجه الدكتور عادل الانزعاج وقال:

-أطال الله عمرك ياعمي.. لماذا لاتتقيد بالنظام؟ هات اعطني الملح!

وتناول ورقة الملح من تحت وسـادته وأعطاهـا لـصهره وأردف بامتعاض:

-ان الانسان يحتمل الحماية شهرا وشهرين.. أتريدون لي أن أموت جوعا بهذا الطعام؟ ونحى الطبق جانبا وجلس حردا ثائر الخاطر فابتـسم الدكتور عادل وقرب من سريره كرسيا وقال له:

- ألسنا نريدك ياعمي أن تشاهد أحفادك من جميع أبنائك؟ ألسنا نريد أن تمتد بك الحياة لترى تحرر الشعوب وزوال الاسـتعمار، واسـتتباب السلام في العالم؟ أنت الذي التقطك الأتراك من الطريق وأنت ذاهب الى عملك، وقادوك لتشترك رغما عنك في حرب طاحنة لاتدري من أمرهـا شيئا، وأنت الذي عدت لتشترك في معركة ميـسلون، وترافـق حـسن الخراط في المعركة من أجل استقلال سوريا.. أية انتفاضة تحررية فـي سوريا لم تشترك فيها؟ بطل وأب أبطال.. احتملت في حياتـك الكثيـر، عصرت الماء من الطين لتبل بـه عطـشك، وأكلـت ديـدان الأرض والزواحف لتسد جوعك، وها أنت الآن لاتحتمل طعاما بلا ملح!

وكانت جميع العيون معلقة بوجه الـشيخ ذي الـشاربين الثلجيـين الهدلين، وتجاعيد وجهه الغاضب تنفرج رويدا رويدا عن ابتسامة رضى ولمحة تأثر، وتبادل الجميع النظرات وابتسموا وهو يقرب صينية الطعام ويغير مجرى الحديث:

- ما رأيك بهذه الوحدة يا أبا سمير!

فأجاب الدكتور عادل بعد قليل من التمهل:

- انها حسنة على أن لاتطغى الشخصية المصرية على السورية.

أما أحمد فانه استقبل الوحدة بتحفظ تام.. كان الشعب في هرج ومرج يهتفون، يزغردون للوحدة. ولكنه كان يسير في صمت بين الجماهير التي استخفها الفرح، لكأنما شيء جميل قد فقد من سورية يحسه ولا يدري كنهه. أتراه تلك الإنجازات الرائعة التي حققتها سورية في مقاومة الهجمة الامبريالية عليها، والنهج الديموقراطي الذي آلت على نفسها التمسك به؟ مم يخاف وهو العالم التكنولوجي الذي يؤمن طبيعيا بالوحدة العربية التي تلغي التجزئة وتنشط فاعلية الأمة العربية للتطور والتصنيع؟ أتراه يخشى النزعة المصرية للحكم المطلق الذي يحارب كل تقدم في سبيل الاحتفاظ بالكرسي؟. ان أحمد يحس احساسا عميقا بهذا الشيء الذي انطفأ فجأة بالرغم من الكهارب والمشاعل التي تأتلق في تلك الليلة.. ودخل مقهى الواحة حيث اعتاد أن يلتقي بأصدقائه، فوجدهم في ركنهم المنعزل على احدى الموائد يتحادثون، لاتلك الأحاديث التي تضيء وجوههم بالمرح والنكتة، بل فيما جد على سوريا، بسرعة خاطفة أذهلت الناس وحاكت في صدورهم آلاف الأسئلة التي لايدرون لها جوابا، أكثر مما عمرت قلوبهم بالفرح. فمن قائل أن رئيس الجمهورية شكري القوتلي هو الذي سعى للوحدة مع عبد الناصر ليخلص البلاد من نفوذ الشيوعيين، ومن قائل أن البعثيين هم وراء الوحدة حتى يحكموا البلاد باسم عبد الناصر، ويبعدوا بذلك نفوذ الجيش في الجبهة الديموقراطية. ومن قائل أن الفريق عفيف البزري هو وحده الذي صنع الوحدة، ولولاه لما كانت هذه الوحدة لأن التيارات السياسية في البلاد من شيوعية وبعثية وبرجوازية ما كانت تريد هذه الوحدة بل كانت تدجل بها.

سأل أحد البسطاء أحمد وهو في الباص:

- خيو ماذا تعني هذه الوحدة؟

- تعني أن سوريا ستصبح إقليما في شمال مصر.

- والبرلمان؟ ألن يكون لنا برلمان مستقل؟

- كلا!

- ورئيس جمهوريتنا، ألن يكون لنا رئيس جمهورية؟

- كلا!

- خيو هل هذه الوحدة خير أم شر؟

- لست أدري مثل الزواج. لاتعرف سلفا فيما اذا غدا سعيدا أو شقيا.

- هيك خيو هيك! بلا برلمان ولا رئيس جمهورية. من يدافع عـن مصالحنا؟

فلاحون وعمال ومثقفون ورأسماليون وحزبيون من جميع الاتجاهات يتساءلون:

- كيف سيكون وضعنا بعد الوحدة؟

قال أحمد وهو يقرب كرسيا من الطاولة:

- أتريدون الحقيقة ياإخوان؟ في مثل هذا الفرح الذي يعم الجمـاهير لايستطيع الانسان أن يتشاءم..

قال إحسان:

- أخي والله أنا أشعر بالضياع.. نحن كمن لديه أربعة قطـع مـن السكر تحلي له كوب شاي ولكنه أضاع مذاقها في حلة كبيرة.. سـوريا كهذا الكوب ومنجزاتها التقدمية كتلك القطع. انها سـتذوب فـي مـصر ومشاكل مصر، ولن يكون لها بعد اليوم نكهة ولا طعم.

وقال الأستاذ بشير، الذي درس القانون في مصر وعين فـي وزارة الاقتصاد:

- ان الذي ينظر الى الأمر من الوجهة الإقتصادية يجد صعوبة قيام وحدة حقيقية بين القطرين.. ان الفروق بيننا يصعب حلهـا. خـذ مـثلا العامل عندنا. انه يتقاضى مائة وخمسين ليرة سورية في الشهر فما فوق، بينما العمال في مصر وخصوصا الزراعيين لايتقاضى أحدهم أكثر مـن عشر ليرات الى ثلاثين للعمال الصناعيين علـى أحـسن تقـدير. خـذ المثقفين. ان خريج الجامعة في مصر لايحصل على أكثـر مـن مائـة وخمسين من عملتنا هذا اذا أسعفه الحظ ووجد عملا. انني أعرف مصر، درست في جامعتها. ملايين يعيـشون بمـستوى مـشعر بـالفقر ودون البروليتاريا. الجلباب الأبيض لايملكون غسله أكثر من مرة كل خمـسة أشهر. ولا يأكلون سوى الخبز والمخلل والبصل، وتفتك بهم البلهارسـيا. نصف سكان مصر مرضى بالبلهارسيا، وما تجره من عته وانحلال جسم وإجرام. ان عائلة برمتها قد تقتل من أجل علبة سجائر.. وفـي بعـض القرى لاتجد الاّ النساء، ويعد الرجال على الأصابع لأن جلهم قتلوا فـي الثارات أوهم في السجون، ومن هو على قيد الحياة لاينام الاّ فوق رأسه من يحرسه من أهله ومعه بندقيته. الفلاح المصري كثيـرا مـا يفـضل السجن على قسوة الحياة في قريته، ويتنكب الأسباب لذلك. وخـذ أيـضا برجوازية مصر. انها على الأغلب مرتبطة المصالح بقوى الإسـتعمار، بينما هي في سورية برجوازية ناشئة وطنية تسير في توازن مع متطلبات التقدم في البلاد.

قال أحمد:

- هذه فروق وجيهة، ولكن الوحدة وقعت وما عادت موضوع بحث. الآن الأمر المهم كيف يكون موقفنا منها.. أهو موقف متفرج أم معارض أم داعم؟ أما رأييي فهو أن نحافظ على هذه الوحدة وندعمها بالرغم من عجرها وبجرها حتى لايستفيد من نكستها الإستعمار المتربص بنا. وأظن أن هذ أيضا رأي أغلب الرفاق.

قال إحسان متمهلا:

-الشيء الذي يخيفني هو قضية إلغاء الأحزاب. هذا القرار بحلها خطر. نحن جربنا الدكتاتورية وما تجره من بلاء. أن تخنق حريات الناس ليس بالأمر السهل، فتحت هذا النظام يمر كل ما هو معاد للشعب. ان مصر اعتادت حكم الفرد منذ فجر التاريخ ولم يتغير شيء في وضعها، أما سوريا الديموقراطية منذ أن عرف الانسان السوري الحياة على هذه الأرض فهي بالنسبة اليه كارثة.

قال أحمد:

- يقولون بأن حل الأحزاب أمر مؤقت لن يدوم أكثر من عام.

وتساءل الأستاذ بشير:

-متى كنا حزبا مشروعا بالمعنى المفهوم في ديمقراطية صحيحة؟ طول عمرنا نعمل سرا ولن يتغير شيء بالنسبة الينا.

وأردف أحمد:

- على كل حال انها تجربة خليق بها أن تعاش. فان نجحت كانت قوة لأمتنا وانتصارا للتقدم، وان فشلت تمحو الكثير من الأوهام التي عششت في عقول الناس.

وانبرى المقدم حميد الذي كان صامتا طوال الوقت:

- أخي مم نخاف؟ لايخشى علينا.. هل نحن أغنام؟ نجز لحاهم لـو تفرعنوا..

قال إحسان:

- الأمور تبدأ هكذا، ثم تجد نفسك مشلولا عن أية حركة.. ستذكرون كلامي أن هذه الوحدة كانت سابقة لأوانها.

فأسرع المقدم حميد الى القول:

- سيدي! حكمنا الإفرنسيون خمـسا وعـشرين عامـا، فليحكمنـا المصريون خمسا وعشرين أخرى.. أهلكنا الإقطاع فهل هم أسـوأ مـن الإقطاع؟ تعالوا أنظرونا في حوران والجولان والجبل. أنظـروا حـال فلاحينا في قراهم.. الطبقة المسحوقة حقا هي طبقة الفلاحين. أنـتم فـي دمشق لاتشعرون بنا ولا تدركون مأساتنا.. لاتتحدثون الاّ عن العمال ولا تمثلون الا المثقفين الذين يدافعون عن قضية العمال وهم ليـسوا مـنهم. أخبرني أية قوة تستطيع أن تزيح هذا الإقطاع عن صدورنا؟

فرد عليه الأستاذ بشير الضليع في قراءة وفهم الكتب الماركسية:

- قوتنا وحدها واتجاهنا الديموقراطي. ان النمر يأكل الذئب ولكنـه لايوفر الحمل. والإحتكارات قد تأكل الإقطـاع ولكنهـا لاتـوفر عامـة الشعب.. سنعاني تناقضات بلادين رأسماليين. ان احتكارات مصر ستأكل الأخضر واليابس في مصر وسوريا سواء، ولن تكون الوحدة قوة لسوريا وانتصارا لها، ولا قوة لمصر وانتصارا لها، بل قوة وانتصارا لحفنة من احتكاريي مصر، وللإنتهازيين الذين يسيرون في ركاب الحكم.

قال أحمد:

- ان السوري حين يتعثر بحجر في الطريق يلعن نوابه ويلعن رئيس جمهوريته، ولكنه مع ذلك يبقى راضيا بينه وبين نفسه لأنه يـستطيع أن

يشارك في التغيير. أما في الغد فكل ما يصيبه من سوء فسيكون من عمل مصر، حتى لو شح المطر أو طاف بسماء سوريا أسراب الجراد.. فهـل يملك القدرة على التغيير وأمره في يد سـواه؟ ان فـشل الوحـدة وارد، والحب لمصر ربما تحول الى كره. وسيبقى أنت سوري، أنت مصري، يحز في وشائج الوحدة حتى يقطعها اربا. ومع ذلك فما دامت الوحدة قد حدثت فيجب أن نحافظ عليها ونسعى لتوجيهها في الاتجاه التقدمي وندرأ عنها شباك المؤامرات الاستعمارية.

وهز الأستاذ بشير رأسه هزؤا وقال:

- من يدري؟ لعل الوحدة نفسها شباك.

قال أحمد مستبعدا هذا الاجتهاد:

-سمعت بأن قائد الجيش اضطر للإسراع بالوحدة حتى يـدرأ عـن سوريا خطر فتنة دموية داخلية، وتدخل خارجي.

فقاطعه الأستاذ بشير:

- سمعت من أوساط برجوازية بأن الوحدة من تدبير الرئيس القوتلي حتى يضرب الشيوعيين.

قال أحمد:

- منذ مدة قريبة كنت أسمع أخي عبد الوهاب يشتم قائد الجيش لأنه معارض للوحدة. وأخي، كما تعلمون، يستقي عواطفه من حزبه ولـسانه ترشح منه الأخبار. ربما كانت لعبة بعثيـين ضـايقهم كثيـرا الوضـع الديموقراطي في البلاد.. انهم يرددون فيما بينهم بأنه لو استلم الشيوعيون مقاليد الحكم في البلاد فأي دور تاريخي يبقى لهم!.